مجلة البدايات
Email :bidayat@lagh-univ.dz ISSN: 2676-198X
Revue :Bidayate
المجلد: .... / العدد: .... / جوان 2019/ ص ص: ...-...

بنية الشخصية وإنتاج الدلالة
قراءة سيميائية في رواية "سادة المصير"
لسفيان زدادقة

The Structure of the 'Character' and the Generation of Significance: A Semiotic Reading into Sofiane Zedadka's novel, 'Sadet El-Masir' (MASTERS OF FATE)

د/ رشيد بلعيفة
جامعة عباس لغرور –خنشلة (الجزائر)
البريد الإلكتروني :belaifarachid19@gmail.com
رقم الهاتف:0663179000

تاريخ الإرسال:.....	تاريخ القبول:.....	تاريخ النشر.....

ملخص البحث

تسعى هذه المقاربة الوقوف عند أحد مكونات النص الروائي المعاصر، وهو مكون الشخصية باعتبارها المحرك الأساسي لجملة أحداث الرواية، وهي إذ تتطلع إلى التعريف والكشف عن مسارات هذا العنصر الهام، هي كذلك تروم تفكيك جملة السياقات اللغوية وغير اللغوية التي عجت بها رواية سادة المصير، فما مدى أهمية هذا العنصر في صيرورة أحداث النص؟ وكيف استثمر الروائي شخصياته في دفع العملية السردية قدما؟ وهل استطاع الروائي توظيف شخصياته توظيفا براغماتيا؟ بمعنى أنه استغلها في رسم مسارات روايته كلها؟ وما هي الإضافة الجمالية على مستوى السرد والوصف معا؟ كل هذه التساؤلات وغيرها هو ماتبحث فيه هذه المقاربة.
الكلمات المفتاحية: الشخصية؛ الفاعلية؛ السرد؛ النموذج العاملي؛ الرواية.

Abstract:

This study analyzesone of the components of the narrative text'sleading mover of the events;the 'character'.Besides defining this component and uncovering its traits, the work analyses the different linguistic and non-linguistic contexts in the novel of Sadet El-Masir. Accordingly, the following questions are pondered: to what extent is the 'character' important in the development of the events? How did the novelist invest the character in fueling the process of events? Did he employ his characters pragmatically? What was added accordingly at both the aesthetic and descriptive level?
Kays words : Character; Effectiveness; Narrative ; Actantial model; Novel.

أولا-مقدمة:

تتأسس الكتابة النقدية من دافع النزوع نحو اكتشاف المخبوء من العملية السردية ونزع أردية التدثر عن المعنى الذي يكتنزه الخطاب، و ترمي هذه الدراسة البحث وفق مستويين اثنين:

- مستوى نظري؛ نعالج فيه المسألة الإبداعية؛ لنعرضها على الفعالية الابستمولوجية التي أنتجت له الإطار النظري العام، ومن ثمّة تعيين التدافع الحاصل على مستوى الكتابة الأدبية، لرفع اللبس الحاصل حول صدق التجربة الأدبية.

- مستوى تطبيقي: نُشرّحُ فيه نصا روائيا يقع ضمن ما عرف بالأدب الإستعجالي ، وهي رواية موسومة بعنوان: "سادة المصير" لكاتبها سفيان زدادقة، لنعرض النظري على الممارسة النقدية. ونستخلص منه كيفيات التوظيف التي مارسها المبدع لمختلف شخصيات الخطاب الروائي.

ثانيا- تدليل الشخصية:

وتأسيسا على ما سبق؛ فقد شكلت الشخصية مدار البحث واهتمام المنظرين والعلماء في مجال السرديات **Narrativité**، ورصد علاقاتها، وقبل ذلك ماهيتها ووجودها في المتون السردية المختلفة، إذ عليها مدار العمل الإبداعي برمته.

وقبل أن نقوم بمقاربة النص موضوع البحث مقاربة سيميائية –نظرا لما تتيحه هذه المقاربة من توظيف للمصطلحات وصرامة مكنها إياها الإجراء- لا مانع من بسط موجز لجهود ثلة من العلماء والمنظرين في هذا الحقل، حيث يعتبر "فلاديمير بروب **V. Propp**" من بين الذين اهتموا بهذا العنصر الحكائي الهام من منظور وظيفي، أي ما تؤديه الشخصية من وظيفة أو دور من خلال كتابه "مورفولوجية الحكاية الخرافية"، فالشخصية في نظر بروب: "أداة تنفيذ الفعل"[1]، لذلك يجب الاهتمام بما يصدر عنها وإغفال كينونتها وبعدها الثقافي، وهي عنده لا تتحدد بصفاتها وخصائصها الذاتية، بل بالأعمال التي توظف من أجلها ونوعيتها، "إن ما هو مهم في دراسة الحكاية هو التساؤل عما تقوم به الشخصية، أما من فعل هذا الشيء أو ذاك وكيف فعله، فهذه أسئلة لا يمكن طرحها باعتبارها توابع لا غير"[2]، وقد تمّ تحديده لهذا العنصر من خلال دراسته الحكايات الشعبية العجيبة، ووزع الوظائف **Fonctions** * التي تقوم بها الشخصية إلى سبع دوائر أفعال **Sphères d'actions**.

1. دائرة فعل المعتدي **L'agresseur.**
2. دائرة فعل المانح **Le pourvoyeur** أو الواهب **Le donateur**.
3. دائرة فعل المساعد **L'auxiliaire**.
4. دائرة فعل الأميرة أو الشخصية مدار البحث. **La Princesse**
5. دائرة فعل الموكل **Le mandateur**.
6. دائرة فعل البطل **Le héros** .
7. دائرة فعل البطل المزيف **Le faux héros**.[3]

وقد نبّه **بروب** إلى "إمكان اضطلاع شخصية واحدة بأعمال أكثر من دائرة (كأن يكون المانح في الوقت ذاته مساعدا) أو أن تتغير الشخصية داخل الدائرة الواحدة (كأن تتم عملية الاعتداء بواسطة شخصية معينة، ثم تتواصل نفس هذه الوظيفة بواسطة شخصية أخرى)"[4].

غير أن هذا الطرح البروبي واجه جملة من الانتقادات والاعتراضات التي أتت بعد تطبيق مشروعه هذا، منها ما أتى به "أ.ج غريماس **A.J. Greimas**" الذي طور المفهوم الذي جاء به بروب، وأسس أول نظام عاملي للشخصيات، أطلق عليه "النموذج العاملي **Modèle actanciel**" يرتكز على ثلاثة أزواج من العوامل: (المرسل، المرسل إليه)، (الذات، الموضوع)، (المساعد، المعارض).

وهذه العوامل **Actans** ينظر إليها من مدى مشاركتها داخل المحاور الدلالية الثلاثة الموجودة في الجملة، محور الرغبة **Axe de désir**، محور الإبلاغ **Axe de communication**، ومحور الصراع **Axe de lutte**. وبهذا ميّز غريماس بين العوامل والشخصية، التي ما هي إلا وجه محقق من وجوه هذا الفعل، وهذا النظام العاملي مكنه من القول: "إن الشخصية الروائية هي نقطة تقاطع والتقاء مستويين، سردي وخطابي، فالبنى أو البرامج السردية تصل الأدوار العاملية بعضها ببعض، وتنظم المحركات والوظائف والأعمال التي يقوم بها الأشخاص في الرواية، بينما تنظم البنى الخطابية الصفات أو المؤهلات التي تحملها هذه الشخصيات"[5].

إن مفهوم العاملية لدى غريماس أضفى على الشخصية رؤية أكثر دلالية، لا كمرجع نموذجي ولا كتصور وصفي مغلق، ولكن كبنية فاعلة ومؤسسة على قواعد صراعية يكون حافز المشاركة والرغبة في العمل هو المنظم لدلالتها التركيبية واللفظية داخل النص.

إلى جانب آراء بروب وغريماس في تحديد ماهية هذا العنصر الحكائي الهام، هناك رأي آخر أسهم في الوقوف عند هذا المكون السردي بشكل مسهب، هو رأي الناقد "فيليب هامون **Philippe Hamon**" من خلال كتابه "سيميولوجية الشخصيات الروائية **Pour un statut sémiologique du personnage**" فالشخصية في عرف هذا الناقد يمكن تحديدها "بأنها مورفيم فارغ، أي بياض دلالي لا تحيل إلا على نفسه إنها ليست معطى قبليا كليا، فهي تحتاج إلى بناء، بناء تقوم بإنجازه الذات المستهلكة للنص زمن فعل القراءة، هذا المورفيم الفارغ يظهر من خلال دال لامتواصل ويحيل على مدلول لامتواصل"[6]، فالروائي يقدم شخصية فارغة من الدلالات (الأفعال والصفات) التي تتشكل بفعل القراءة من طرف المتلقي، الذي يعيد بنائها، كما يقوم النص ببنائها أيضا، وهي لا تكتمل ولا تحدد علاماتها إلا باكتمال النص، ومن خلال علاقتها بباقي الشخصيات الأخرى، وهي أيضا علامة لسانية أو مفهوم معنوي أو شيء من الجماد "وتطلق هذه العبارة عنده على كل ما هومدار نص سردي، فالحيوان شخصية في نص يقص وقائع من عالم الحيوان، والجرثومة شخصية في نص يسرد أطوار مرض معيّن"[7].

وتبعا لمعياري الكم والكيف اللذين اعتمدهما هامون حدد ثلاثة أنواع من الشخصيات: المرجعية **Référentiels**، والإشارية أو الواصلة **Embrayeurs**، والاستذكارية **Anaphoriques**، وبهذا يكون قد صنف الشخصية ضمن محور (المبدع، النص، القارئ) [8].

بعد هذا المدخل النظري حول تحديد مفهوم الشخصية عند بعض النقاد الغربيين، نلج عالم النص الروائي في رواية "سادة المصير" لتؤانس الخطاب بقراءة في الرواية.

تتحرك أحداث الرواية متفاعلة مع مجموعة الشخصيات التي اختارها الكاتب في مسارات متباينة ومحملة ببرامج عقدية وإيديولوجية، تحاول كل فئة أن تنسف وتلغي الفئة الأخرى، غير أن مناط السرد في العملية الإبداعية للكاتب، وإن بدا في معظم الأحيان واضحا، إلا أنه يمكر بقارئه ويقتلعه من عادة القراءة الوثوقية ليشي له بجملة من الأفكار والانطباعات من شأنها أن تعدل من أفق انتظاره إن لم نقل تلغيه.

فالأحداث في الرواية تتسارع بشكل يجعل القارئ لا يشارك المبدع في رسم معالم الأحداث وصيرورتها في جانبها التخييلي على الأقل، غير أن التساؤل الذي يلح على قارئ هذا العمل هو: من هم سادة المصير؟ ولماذا هذا العنوان بالضبط؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي تحليلا معمقا وسيميائيا لمتن العنوان، باعتباره أول مفتاح إجرائي **clé opératoire** ، لفك شفرات النص، ونزع رداء التدثر عن المعنى.

ثالثا-قراءة في رواية "سادة المصير":

تدور أحداث الرواية في بلدة صغيرة يقطنها سكان بسطاء، وزمنيا أثناء الزيارة التي قام بها رئيس البلاد إلى تلك البلدة، وكأن الملفوظات السردية الافتتاحية للرواية هي التي رسمت معالم أحداثها وساهمت في تطورها، إن لم نقل في إنشاء النص برمته، فقد رسمت هذه الزيارة الرئاسية في ذهن أحد أبناء البلدة (عمار بن المسعود) صورة حالمة لبلوغ هذه المرتبة متمثلة في رئاسة الدولة،[9] وفي الوقت ذاته عملت كحافز **motif** للشخصية المركزية في الرواية قصد بلوغ هذا المأرب، وتتطور الأحداث في علاقات تفاعلية بين الشخصيات وأدوارها، ووظائفها السردية، لتصل إلى تأزيم على مستوى السرد والحكي، فبمجرد فتح المجال أمام الفعاليات السياسية لتبني مشاريع ديمقراطية وتنافس مختلف القوى في ذلك، ما فتئت السلطة أن أغلقت باب الحوار وصادرت حرية الرأي، ودخلت البلاد بعدها في غياهب الظلمات التي أقحمها فيها صانعو القرار وسادة المصير، لتعرف الأحداث وكذا الشخصيات الحكائية مسارا سرديا آخر مغايرا لما كان يتوقعه المنتج الثاني للنص، وتتطور أحداثها إلى حروب طائفية ومجازر رهيبة ساهم في صنعها وبلورتها ضيق النظر، وتفشي عاملي الجهل والأمية في أوساط واسعة من الناس.

في أثناء ذلك، لم يغفل الراوي أثناء عملية السرد فترات متقطعة للمتعة والرغبة والجمال برغبة سحرية مكنته من توجيه الأعمال والأدوار، وكذا الشخصيات أوجها شتى، جاعلا في الوقت نفسه من القارئ المشاركَ الفعليَ لعملية الإبداع في حد ذاتها، بإمكانية التخيل والتكهن بمجريات سير الأحداث، لكن في كثير من الأحيان لا يُوفَّقُ القارئُ إلى تتبع عملية سير الأحداث هذه، حيث يمكر به الكاتب ويتدخل حتى في عملية السرد، التي تكون على لسان شخصياته، لتخلص عملية التفاعل بين الشخصيات والأحداث، وكذا بين الشخصيات وعاملي الزمان والمكان إلى نهاية يشترك في رسم حدودها المبدع والقارئ على السواء، وبالرغم من عملية الوضوح التي سادت مختلف المحطات الخطابية والسردية أثناء عملية الحكي، إلا أن النص يتمنع على قارئه بعدم البوح الكامل، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالمسكوت عنه داخل المتن الروائي، وهو ما نحاول استكناه خفاياه؛ من خلال عرضنا لجملة من الشخصيات التي كونت الإطار العام في عملية السرد، وهي على التالي: عمار بن المسعود، جمال المبروك، سمير الطايش، لويزة الحسناوية، ، الجنرالات الأربعة عشر.

غير أن باقي الشخصيات لا يمكن عدها أو اعتبارها شخصيات فاعلة في المتن الروائي، ولا يمكن كذلك إحصاء كل الأسماء الواردة في الرواية؛ نظرا لاستحالة إمكانية الإحاطة بكل ما يتعلق بها من أدوار ووظائف.

رابعا- بنية الشخصية الفاعلة في الرواية:

إن الشخصية كائن ورقي على حد تعبير "بارت" ينشأ إنشاءً، وهي "كائن حي بالمعنى الفني، لكنه بلا أحشاء"[10]، يرسم معالمه المبدع ويشكله تشكيلا فنيا ما، وهو الذي يحدد صفاته ومؤهلاته وكذا تصرفاته، باعتباره صنيعه. وشخصيات "سفيان زدادقة" لا تشذ عن هذا المسار، إذ يتدخل الكاتب في عملية التعبير، ويرسم مجمل التصرفات المرضية والقبحية، وذلك نابع من تحميله إياها أفكاره الإيديولوجية والعقدية، كما في الملفوظات السردية التالية: "كان حزب اللحى الطويلة يضم عناصر متمردة بطبيعتها، حالمة بمجتمع ينشأ من صلب كتاب، يقضون جل أوقاتهم في الشوارع بألبستهم المتميزة ويحاولون استمالة الشباب إليهم"[11]. ثم في ملفوظ آخر: "أما حزب الحليقين فعلى النقيض من ذلك، كان يضم مجموعة من المثقفين المعزولين، والذين يتعاملون مع العامة كما يتعامل البيطري مع شاة جرباء، كانت أفكارهم الأساسية مستوردة من أوروبا ولا يخجلون في تقديمها للشعب حتى من دون أن ينزعوا عنها غلاف التعبئة الذي جاءت به"[12]، وأيضا قوله: "أما المحافظون الذين يملكون مكاتب في كل قرية وفي كل زاوية ... كانوا لا يملون تكرار الحديث الذي لا يصدقه أحد حتى أطفالهم عن المشاريع الوطنية الكبرى والنجاحات الخارجية والجيش الذي لا يقهر. كانوا يدركون بعمق سبب المشاكل ويحاولون بشتى السبل إرجاع أولادهم إلى حضن الحزب الذي لم يمقتوا هم أنفسهم شيئا مثله أبدا بأحقاده التي لا تزول، واجتماعاته المغلقة التي لا تنتهي وكواليس الظلام التي تحركها إطاراته، والتي لا يتقن فنونها أحد على وجه الأرض مثلهم"[13].

تشكل هذه الملفوظات السردية **Enoncées Narratives** نواة للبرامج السردية **programmes narratives**، التي تهيكل البناء الفني للمتن الروائي، إذ تضم مجموعة من الفواعل **Actants** مدار الحكي، والتي شكلت فيما بينها برامج اتصال وانفصال **conjonction/ disjonction**، انطلاقا من محور الرغبة في امتلاك الموضوع المتصارع عنه، وهو الوصول إلى سدة الحكم عبر برامج سياسية لكل فئة تطرح البديل، وتنقض ما جاءت به الفئة الأخرى، باعتبار مكيفات الفعل التي تحدد كفاءة **compétence** كل مجموعة كذوات قائمة بالفعل.

وتأسيسا على ما سبق، نحاول بشيء من الإيجاز أن نتبين مجموعة هذه الشخصيات بأوصافها ودلالاتها، وبنياتها الداخلية والخارجية.

1-عمار بن المسعود:

شخصية فاعلة في المتن الروائي، ركز عليها السارد من بداية عملية السرد عند افتتاحه للملفوظات السردية الأولى للرواية، وحتى نهايته منها. تواترت هذه الشخصية تواترا تكراريا مكنها من احتلال المرتبة الأولى من خلال ذكر الشخصيات وأدوارها داخل المتن الروائي، أضف إلى ذلك أنها الشخصية الأساسية باعتبار ما تملكه من كفاءات ومؤهلات ليست علمية أو ثقافية، إنما كلامية حجاجية، وتسلطية قمعية، خاصة على تشكيلته السياسية التي ترأس مكتبها السياسي ببلدته، لذلك نال لقب "الفتى الواعد"، الشاب الطموح، "ممثل طبقة الشبان الجدد"، "قائد الطليعة المتحررة"[14].

هذه الشخصية سكنها هاجس التملك وحب الظهور، والحالة الباثولوجية التي يمكن أن نَسِمَهَا بـ "جنون العظمة"، المتحررة من كل القيود والضوابط التي رضخ لها أترابها. هي الشخصية التي تختزل معاني عديدة متضاربة، متصارعة في نفسها، نماها جهله واستهتاره، وكذا هوسه الشديد لبلوغ أعلى منصب في الدولة، سايره الكاتب في كل أطوار الرواية، بدءا من صباه إلى شبابه، ثم زواجه من "لويزة الحسناوية"، ثم تقلده رئيس مكتب سياسي، ثم أمير كتيبة فدائية سميت "كتيبة الغضب"، لما علم بأمر كتيبة الغضب لم يمانع ولم يعارض"[15] رغم جهله وأميته ساد حتى على الشخصيات المثقفة في الرواية كشخصية "جمال المبروك".

2-جمال المبروك:

شخصية مساعدة لشخصية "عمار بن المسعود". لم يتوقف عندها الكاتب بالقدر الكافي أثناء عملية وصف الملامح والأوصاف كما كان يفعل مع باقي شخصيات العمل، غير قوله: "لكن جمال المبروك، وكان طالبا جامعيا مرموقا راح يشرح بابتسامة أن في خطاب الرئيس أشياء كثيرة أولها الديمقراطية"[16]، إلا أنه سرد بنيتها الداخلية بشيء من الإسهاب، مركزا على الجانب التثقيفي التي كانت تتمتع به هذه الشخصية، عكس باقي مجموعة حزب اللحى الطويلة، متدخلا في رسم معالم سيرها، وتفكيرها، ومبادرتها بما ينبئ عن مغايرة منهج هذه الشخصية ما كانت تقوم به عناصر الشغب والفساد الأخرى. "كان جمال المبروك مرهف الشعور ... غادر وفي قلبه كل الحقد على "سمير الطايش" المتعصب وعمار الأمي المهووس"[17]. كما جاء في ملفوظ آخر معارضا لما خطط له "سمير الطايش" و"عمار بن المسعود" من تكوين جماعة أشرار، "... إلى أن جاء جمال المبروك، طارحا عليه الفكرة فعارضها بشدة، وقال أن النظام المحافظ مضطر إلى إجراء انتخابات أخرى آجلا أم عاجلا"[18].

3-سمير الطايش:

هو الآخر شخصية مساعدة لعمار بن المسعود، توقف عندها الراوي كثيرا، مبرزا صفاتها وملامحها، بشيء من الإسهاب، رسم من خلال ملامحه سيرة حياته الخاصة، المتميزة بالشذوذ والاضطراب والعنف والدم وغيرها، "كان من ضمن الشبان فتى يدعى سمير الطايش، تميز دوما بأفكاره الذهبية، كان هو الذي اقترح عليهم إنشاء شرطة حزبية لمراقبة السلوكيات الأخلاقية للمواطنين، وهو الذي أوعز إلى عمارة بفكرة القضاء الشرعي، كما لعب دورا بالغا في حصول المكتب على التبرعات الكثيرة، كان فتى أشقر الشعر نحيلا كمسمار بعيني ثعلب، لا تتوقفان أبدا عن الحركة"[19].

هي شخصية ماكرة تظهر عكس ما تبطن، تمتاز بذكاء الثعلب، وتجسد فعاله في كلمة تختزل كل معاني المكر والخداع والغش، شخصية متلهفة إلى الدماء والقتل والدمار، اضطلع بأدوار عدة في مسيرته أثناء عملية السرد، من خطيب ناري لجماعته، إلى تقلده منصب الحاكم الشرعي للقصاص والحكم على جماعات الضحايا والأبرياء، باختصار موجز؛ شخصية يدل اسمها على مسماها، فالطيش ضد الحلم، وضد كل الطباع الحسنة، لذلك أسندت هذه الصفة لاسمه لانعدام نسبه وعائلته، وكل ما يوحي بعراقة الأصل والمنبت، عديم الرحمة قاسي القلب، حتى أنه قاد جملة من العمليات أسفرت عن إحراقه جماعة من الجنود: "ماعدا سمير الطايش الذي لم يعرف له عائلة أبدا في البلدة، ولقد راح يشغل نفسه بإطلاق رصاصات الرحمة على كل الجرحى من الجنود، ثم أفرغ عليهم الوقود وأشعل بهم نارا عظيمة، ولقد جن كل من رأى ذلك المشهد من أهل البلدة"[20].

4-لويزة الحسناوية:

شخصية فاعلة في المتن السردي، كما أنها تصنف ضمن الشخصيات المساعدة لعمار بن المسعود، باعتبارها أصبحت زوجته بعدما حلت بالبلدة. جاء وصفها من قبل السارد على أنها "امرأة قيل أنها سليلة أسرة ملكية تركية، من ملوك الأناضول المنقرضين. في البداية راح الجميع يتعجب من جمالها الذي يصيب القلوب ويتركها حائرة، وضحكتها المفزعة الشبيهة بالصرخة، كانت بشعرها الطويل الذي يبلغ ثلاثة أمتار، والملتف حول محورين من البلاستيك تستهوي الرجال"[21].

شغلت هذه الشخصية حيزا معتبرا من عملية السرد، وكانت عنصرا فاعلا في عملية تحريك الأحداث عندما شارف العمل الروائي على نهايته، حيث أنها هي التي خلصت زوجها عمار من المجاهد "الحاج سعيد"، حين هم بأسره بعد أن استسلم له، "فنهضت لويزة إليه وقد ملأها الغضب، وأحاطت رقبته بأصابعها الرقيقة الشفافة، وراحت تخنقه"[22]، ثم قولها هازئة بالحاج سعيد: "مادام الرصاص لا يقتلك، فلتجرب الخنق بأصابع امرأة جميلة"[23]. إلا أن وظيفتها في عملية السرد لم تكن لتخرج عن كونها ملاذا للمتعة لزوجها المتعب من ضغط السياسة والسياسيين، إلى جانب كونها المرأة المثالية في تسيير شؤون البيت ورعاية أصحابه، فكان دورها بالتالي دورا أسريا بصفتها ربة بيت من الطراز الرفيع.

5-الحاج سعيد:

الشخصية الضديدة في البرامج السردية لشخصية "عمار بن المسعود". زعيم حزب المحافظين في البلدة ورئيس البلدية في آن[24]، جاء وصفه متقطعا في المتن الروائي، إذ لم يعنى الراوي بدقائق وصفه وملامحه، غير أنه ركز على الجوانب الداخلية لهذه الشخصية، واصفا إياه بالشجاعة والحزم، "ما إن وضع سماعة الهاتف حتى أخبره مساعدوه أن الشبان يقذفون البلدية بالحجارة، فاشتعل وجهه بالغضب، وعزم على الخروج إليهم ببندقيته الضدئة التي ما حركها أحد من مكانها منذ أن علقا صاحبها على الحائط منذ زمن الثورة، إذ لم تكن تنقصه الشجاعة وهو المحارب القديم"[25].

عملت شخصية "الحاج سعيد" على تكريس ما هو كائن بشتى السبل، بصفته المستفيد الأول من الوضع الراهن، وذلك بحكم ممارسته لعبة السياسية أحادية القطب، إذ هو "المحافظ الذي تولى رئاسة البلدية منذ عشرين عاما"[26]، وهو الذي "أمسك بقبضة من حديد ولسنوات طويلة من حكمه على زمام الأمور"[27]. سايرت هذه الشخصية كل أطوار عملية السرد بصفتها تمثل قطبا من ثلاثة أقطاب أخرى تسعى إلى بلوغ المرام وحيازة الموضوع **objet**، ضمن صراع مرير مع باقي الفعاليات والبرامج.

غُيّبت هذه الضخصية وغيب دورها بفعل عملية الإزاحة التي مارستها السلطة الحاكمة أثناء سير الأحداث في العمل، شخصية جريئة تمتاز بالصبر، ونصب الكمائن والمكائد، بحكم معرفتها بوجوب فعل شيء يقضي بإعادة الأمور إلى نصابها، اكتسبت هذه المؤهلات والكفاءات من مرجعية سابقة لها، خاصة أثناء مقاومة الاستدمار.

6- شخصية الجنرالات الأربعة عشر:

يتكون هذا العنصر من مجموعة فواعل تأتمر بفاعل/مرسل على مستوى الخطاب، وهو الشخصية التي يتوقف عندها الراوي كثيرا بالوصف والتدقيق، سواء في ملامحها الخارجية أو في طباعها الداخلية، هذه الشخصية هي التي وصفها الراوي بصفة "الضخامة". غير أنهم "يشتركون كلهم بتمتعهم برقاب كرقاب الثيران، وسحنة جزار جشع، ببطون مكورة تمتد نصف متر إلى الخارج، وشوارب سوداء غليظة وأيد كأنها قراعة فظيعة، كانوا إذا تحدثوا تسمع أصواتهم كأنها نقيق ضفادع في موسم التزاوج"[28].

إن هذا العنصر من الشخصيات أو الفواعل هي النص الغائب الحاضر في سير عملية السرد بالأحداث، إذ عليها مناط الرواية برمتها، وهي التي تختزل عنوان الرواية في تصرفها بمجريات الأحداث والأمور، فهم السادة وهم أرباب المصير، آية ذلك ما جاء في المتن السردي "تحلّق الأربعة عشر جنرالا حول مائدتهم التي شهدت عشرات القرارات المصيرية تحت شعار الثورة بادئ الأمر، ثم غيروه مع الوقت إلى المصلحة العليا للوطن، فباعوا المبادئ بالمصالح، كانوا يقررون في هذا المكان القذر تحت الأرض كل الأشياء الهامة والخطوط العريضة، ولقد اضطرتهم الأمور، ولاسيما الخارجية منها إلى إقرار الديمقراطية والسماح بإنشاء الأحزاب، والصحف المستقلة وإعلان مواعيد محددة للانتخابات، معتقدين أن كل شيء تحت التحكم، وأنهم يعرفون ما يصنعون"[29].

إن هذا الملفوظ السردي يختزن كل معاني القوة والسلطان والمال وغيرها من مظاهر التملك والسيطرة والسيادة، فهم الذين يقررون، وهم الذين يعدّلون، أو حتى يلغون كل معارض أو ضديد لتوجههم. ومناط الحكي في الرواية متوقف في جزئها الأخير على هذا العنصر، فجملة هذه الشخصيات هي التي تتحكم في عصب الحياة للمجتمع، بما تمليه من قوانين، وما تجدده من وعود، تحرك منفذ قراراتها في الخفاء التام ومن وراء حجاب، حتى أن اجتماعاتهم تجري في الظلام خارجا، وبضوء خافت في قاعة الاجتماعات، وكأنهم يخشون النور من فضح فعالهم.

أما أضخمهم الذي نزع عنه الراوي رداء التدثر ووضعه في بؤرة الضوء للوصف؛ فهو "ضخم الجثة يتجاوز المترين، بعينين صغيرتين وجبهة ضيقة، وكان إذا تحدث تحركت شحوم وجهه في حركة مترهلة كأنها عجين بيتزا. كان يسيطر وحده على حركة استيراد المعدات المنزلية والأقمشة الجاهزة"[30]. يضيف الراوي لجملة هذه الصفات الجسمانية صفات أخرى أخلاقية، تتعلق مبدئيا بناحية القوة على إنجاز الفعل، بحكم المنصب الذي يشغله، ولنتبين هذه الكفاءة في الملفوظات السردية التالية: "قطع أضخمهم هذه التمثيلية"، "عاد أضخمهم ليتكلم"، "أمسكه أضخمهم من ربطة عنقه"، "تركه أضخمهم"، "وافق أضخمهم وتبعه الآخرون"[31]. يدل كل هذا دلالة صريحة على عدم افتقار هذه الذات لمبدأ القوة في إنجاز الفعل، مع إمكانية عدم الرغبة في الفعل مع مكيف الشعور بوجوب الفعل.

في الوقت ذاته تمثل مجمل هذه الشخصيات الإطار الخارجي، وكذا الموجود الداخلي في موضوع القيمة **Objet de valeur** المتصارع حول تملّكه وهو السلطة العليا، إذ هي الذوات التي تنصبّ متى شاءت ومن شاءت، وكذلك تنزع من شاءت ومتى شاءت، هؤلاء هم الخصم والحكم كما أنشد المتنبي.

7-شخصية فاروق المحطة:

هذه الشخصية لم يعن بها الراوي كثيرا على غرار ما فعل مع شخصياته الأخرى، ولم يتوقف كثيرا في رسم صورتها ولا في سرد مجمل ملامحها، مكتفيا بقوله: "كان زعيم الحليقين في البلدة رجلا يدعى فاروق المحطة، كان أستاذا جامعيا منع من التدريس بسبب تصرفاته المخلة بالحياء والاعتبار العام كما جاء في قرار الفصل الذي أمضاه العميد وهو يضحك ملء فمه، كان أهل البلدة يسمونه فاروق المحطة بسبب سفره الدائم إلى العاصمة عبر محطة الحافلات، حيث يجتمع هناك بشلته المغامرين لقضاء أوقات مرحة، وللحديث في السياسة بلا ملل"[32].

لم تكن هذه الشخصية فاعلة على مستوى المتن السردي إلا على جماعة الحليقين، بقدر ما كانت تعاني من افتقار إلى سبل الإقناع وطرق الحجاج، التي كان يتمتع بها خصومها من زعماء حزب اللحى الطويلة، وحزب المحافظين فقد لجأت إلى محور هذا الافتقار **Manque** بالكتابة في الجرائد والصحف؛ لأنها في

نظرها أكثر تداولا من الخطاب المنطوق. أما على مستوى بنية هذه الشخصية فقد شكلت لها الأفكار والبرامج الأوروبية مرجعية تستند إليها، وكأن الحلول المستعارة أو المستوردة هي الحل لكل أدواء مجتمعها، فمعظم الأوصاف التي أتى بها الراوي معنوية، ترتبط في عمقها الدلالي بعلامات تتيح للشخصية التحرك في فضائها، يمكن إجمال هذه العلامة في لفظ اللاتوازن أو الهذيان، ففي حين تملك هذه الشخصية كفاءات ومؤهلات ثقافية وافية، إلا أنها في الجانب الأخلاقي تعاني من فصام على مستوى إنجاز الفعل، "كانوا يتحدثون عن الشعب وكأنهم يتحدثون عن مخلوق إنسيكلوبيدي، يقدم كل واحد منهم وجهة نظره الخاصة حول ردود أفعاله وتصرفاته، وكانوا يملئون حديثهم القلق بمصطلحات علمي الاجتماع والنفس وشيء من هوس الخمر"[33].

لم يكن تعدادنا لمجمل أسماء هذه الشخصيات الفاعلة اعتباطا، بقدر ما كان وفق خطة مدروسة، أملتها آليات المنهج وإجراءاته، حول تحديد بنية الشخصية الفاعلة والمؤثرة في سير الأحداث في المتن الروائي، وما إقصاؤنا لأسماء أخرى عجت بها الرواية، إلا من باب عدم الوقوف طويلا وبطريقة إحصائية عند كل من جاء ذكرهم في العمل، إذ المراد هو تعداد الشخصيات الفاعلة وليس كل الشخصيات المتحدث عنها.

وتأسيسا على هذا، رأينا أن نكمل ما بدأناه ضمن المقاربة بالوقوف عند مختلف التحولات الوظيفية التي أسس لها السرد نصيا، انطلاقا من جملة الأدوار والوظائف التي قامت بإنجازها هذه الشخصيات على مستوى النص، فقد احتكم هذا الأخير إلى عامل الحركة والدينامية في الأحداث التي واكبتها جملة الشخصيات في الرواية، وتراوحت هذه الحركية بين علاقات الاتصال/الانفصال عن موضوع القيمة المتنازع عنه في محور الصراع، وفي الوقت ذاته عمل محور الرغبة وكذا محور المشاركة والاتصال على بلورة جملة الوظائف السردية، التي وُظفت الشخصيات الروائية أساسا لتحقيق إنجازها من الأدوار الغرضية الموكلة إليها من طرف السارد.

فقد ارتبطت مجموعة الشخصيات الروائية سالفة الذكر بعلائق تواشجية عديدة على جميع مستويات الخطاب الروائي، فمن خلال النص يكون اختبار الكفاءة الوحيد موضوعه الرئيس هو اعتلاء عرش السلطة، انطلاقا من الملفوظات السردية الافتتاحية للنص، أما مجموعة الذوات الفاعلة فهي "عمار بن المسعود"، أما المرسل إليه فهو "جماعة اللحى الطويلة"، ويبرز معارض هذه الذات في مجموعة الشخصيات الأخرى المناوئة للبرنامج السياسي لجماعة "عمار" وهم: "الحاج سعيد"، "فاروق المحطة"، "الجنرالات الأربعة عشر"، أما المساعد فشمل عصبة "عمار" المكونة من: "سمير الطايش"، "جمال المبروك"، و"لويزة الحسناوية"، مع إغفالنا لمجموعة من المساعدين الآخرين نظرا لتوسع الكاتب في ذكر الأسماء، فاقتصرنا على الأسماء البارزة فحسب.

نستطيع كذلك تعداد أن الذوات الفاعلة المضادة هي "الحاج سعيد"، ومساعده "جماعة المحافظين" ومعارضوه "جماعة حزب اللحى الطويلة"، و"جماعة الحليقين"، وموضوع القيمة هو بقاء دار لقمان على حالها. أيضا يمكن اعتبار شخصية "الجنرالات الأربعة عشر" مرسلا، والمرسل إليه هو شخصية "الرئيس"، المساعدون هم "جماعة حزب المحافظين"، والمعارضون هم "حزب اللحى الطويلة" و"جماعة الحليقين"، والموضوع دائما هو بقاء السلطة في تصرفهم.

غير أن كل هذه البرامج السردية العديدة لا يمكن إبقاؤها بالبحث في مداخلة بحجمها الصغير هذا، فنكتفي باختبار الكفاءة الأول الذي أثبتناه في رأس هذا البحث، وهو الترسيمة التالية التي تشكل النظام العاملي
لغريماس[34].

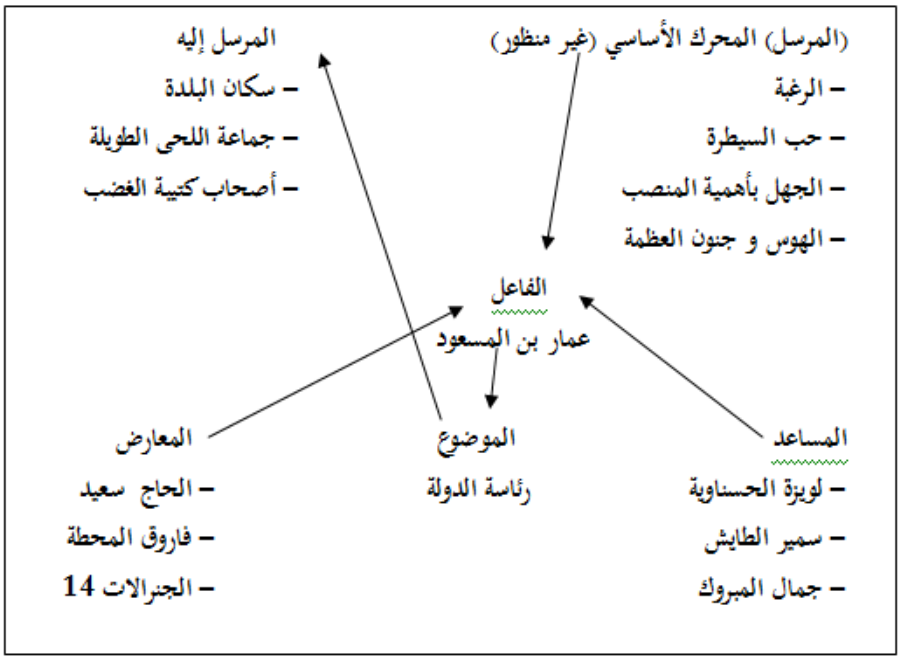

خامسا- إنتاج الدلالة:

هذا عن الترسيمة العاملية، أما فيما يخص عملية إنتاج الدلالة في المتن السردي فتأتلف من خلال مجمل الأدوار والوظائف الموكلة لكل شخصية فاعلة على حدة، فالدراسة الدلالية لأي نص "تتطلب موافقة تشكل خطابه الذي يمتد من مرحلة افتتاحه للمشهد السردي إلى مرحلة ختمه، فدراسة هذه الوضعية على امتدادها تساعد على الدفع بالإثبات السردي نحو الدقة العلمية المطلوبة لمعالجة النص، ثم إن هذه الدراسة تقتضي تحقيق نوع من الاتساق الذي يستدعي بدوره عناصر تشغل أوضاعا متناظرة داخل تعارضات مزدوجة تبين الدلالة"[35].

وبدراسة جملة من العلاقات الدلالية التي تحكم البنيات الأساسية للخطاب تنبجس شفافية المعنى ويسهل وروده على المتلقي، فمن خلال الدراسة السيميائية لنص الرواية "سادة المصير" نستطيع أن ندعي أنها مبنية على ثنائية إطار، تتحكم بدورها في أعناق ثنائيات عديدة تتفرع عنها، هذه الجدلية هي: الجهل/ العلم، التي تتوالد معنويا في مسارات تحكمها شبكة من العلائق، لتؤدي إلى بروز ثنائيات أخرى لا يمكن إغفالها في عملية إنتاج المعنى الكلي للنص، منها مثلا ثنائية الظلم/ العدل، المجابهة/ الخضوع، الخوف/ الشجاعة، وغيرها مما يمكن أن نملأ بها الفجوات الدلالية التي يزدحم بها المعنى الكلي للنص، فالثنائية الإطار الجهل/ العلم هي الثنائية التي تجتمع في محور المعرفة[36].

وانطلاقا من هذا المحور يمكننا أن نضع مربعا سيميائيا نثبت من خلاله العلاقات الدلالية التقابلية لقطبي هذا المحور:

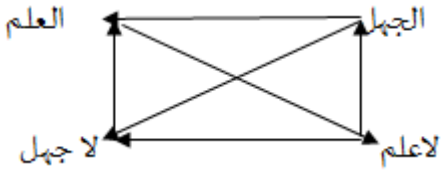

"إن المربع العلامي يهيئ –بحكم أنه يضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص- اكتشاف بنية الدلالة العميقة المؤسسة للنص، المتحكمة في بنيته السطحية"[37].

لا غرو أن البحث عن الدلالة في نص الرواية "سادة المصير" يتم عبر تقصي هذه الثنائية التي احتوت مجمل النص، بدءا من ملفوظاته الافتتاحية، ومرورا بجملة الأحداث الدامية التي ساعد على تواصلها وتكرارها عامل الجهل والأمية في غياب العقل والتفكر في الأمور، إلى الملفوظات الأخيرة منها، والتي كرست مبدأ الظلم في مجابهة العدل. إنها جملة من القيم المتناقضة والمتضادة على مستوى خطية النص، القائم بها جملة من الشخصيات، التي اختارها الراوي لتجسيد جملة هذه الأدوار والوظائف، في أثناء ذلك تبرز دلالة البنيات النصية داخل الخطاب في شكل يضع كل فئة موضعها، فلغة الإسكافي غير لغة طالب الجامعة، ولغة الجنرال غير لغة العقيد وهكذا.

تنتظم الدلالة في هذه الرواية ضمن مجموعة العلاقات الدلالية، التي تتحكم في سبر المعنى، وكذا مجمل الحقول الدلالية التي لا تغفل سياق القول؛ سواء تعلق الأمر بالسياق اللغوي، أم بالسياق غير اللغوي الذي ينضوي بدوره في سياق الموقف أو الحال، كما ألمح إلى ذلك الإمام "عبد القاهر الجرجاني"، و"فيرث" و"مالينوفسكي". "إن أهم ما تنبني عليه الدراسة الدلالية أنها (إنّية)؛ أي أنها تلزم النص وتتقيد به، ذلك أن الغاية المستهدفة من الدراسة هي إبراز آلية النص في خلق المعنى وتبليغ صداه، والسبيل إلى ذلك كشف شبكة العلاقات القائمة في صلب النص وفنون تأليف الوحدات الدلالية"[38].

سادسا-خاتمة:

بعد أن تم استهلاك رؤية هذه الدراسة، نخلص إلى أن شخصيات رواية "سادة المصير" للكاتب "سفيان زدادقة" تشكلت نصيا لترسم جملة من اللوحات، مكونة بذلك مشهدا دراميا ساهم الكاتب كثيرا في بلورته، انطلاقا من مرجعياته الفكرية والقرائية، التي حاول تجسيدها ضمن هذا المتن، إضافة إلى ذلك أن الدلالة الكامنة في نسيج النص الروائي، تُسهم الشخصية بقسط وافر في إبرازها للمتلقي. لا ندعي في الوقت ذاته أن معاني الرواية مبذولة لجميع القراء، خاصة عند غياب عنصر التأويل في عملية الفهم لاستخلاص الدلالة، فهي عصية متمنعة إلا على من يؤانس الخطاب ويهادنه، ثم يستنطقه على حد تعبير "الجابري" باعتبار "القراءة استنطاق، وما يهمنا هو النصوص التي تقبل الاستنطاق؛ لأنها تمتنع عن النطق أما تلك التي تنطق بما فيها، فهي لا تقبل استنطاقها ولا تتحمله."[39]

الإحالات

[1] - سعيد بنكراد: شخصيات النص السردي –البناء الثقافي-، سلسلة دراسات وأبحاث، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، د.ط، 1994، ص: 16.
[2] - حميد لحميداني: بنية النص السردي - من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط3، 1994، ص: 23-24.
* تنحصر الوظائف عند بروب في 31 وظيفة مع إمكانية وجود السقوط لبعضها أو التكرار في بعض الحكايات أو السقوط والتكرار معا.
[3] - سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003، ص: 12-13.
[4] - الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط، 2000. ص: 68.
[5] - إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي –دراسة تطبيقية-، دار الآفاق، الجزائر، د.ط، 1999، ص: 154.
[6]- فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام، المغرب، د.ط، 1990، ص: 09.
[7] - الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ص: 98.
[8] - المرجع نفسه: ص: 98
[10]- المرجع نفسه، ص: 98.
[11] - سفيان زدادقة: سادة المصير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01 ،2002، ص:13.
[12] - المصدر نفسه، ص:14.
[13] - المصدر نفسه، ص:16.
[14] - المصدر نفسه، ص:09-10.
[15] - المصدر نفسه، ص:72.
[16] - المصدر نفسه ، ص:11.
[17] - المصدر نفسه، ص:51.
[18] - المصدر نفسه، ص:71.
[19] - المصدر نفسه، ص:23.
[20] - المصدر نفسه، ص:88.
[21] - المصدر نفسه، ص:28.
[22] - المصدر نفسه، ص:153.
[23] - المصدر نفسه، ص ن.
[24] - المصدر نفسه، ص:34.
[25] - المصدر نفسه، ص:42.
[26] - المصدر نفسه، ص ن.
[27] - المصدر نفسه، ص:44.
[28] - المصدر نفسه، ص:57.
[29] -المصدر نفسه، ص58.
[30] - المصدر نفسه، ص 59.
[31] - المصدر نفسه، 62-63.
[32] - المصدر نفسه، ص35 -36.
[33] - المصدر نفسه، ص 15.
[34] - محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي –نظرية غريماس-، الدار العربية للكتاب، تونس، سلسلة مساءلات، د.ط، 1993، ص: 38.
[35] - فريدة بن عزوز: التحليل السيميائي للنصوص الأدبية، مجلة كلية الآداب، تطوان، المغرب، جامعة عبد الملك السعدي، مطبعة ألطوبريس، ع1، 2000، ص: 157.
[36] - ينظر: محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي –نظرية غريماس-، ص: 93.
[37] - المرجع نفسه، ص: 97.
[38] - المرجع نفسه، ص: 30.
[39] - محمد عابد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط6، 1993، ص: 90.

المراجع:

(1)الكتب:

-إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي –دراسة تطبيقية-، دار الآفاق، الجزائر، د.ط، 1999
-حميد لحميداني: بنية النص السردي - من منظور النقد الأدبي-، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط3، 1994.
-سفيان زدادقة: سادة المصير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.
-سعيد بنكراد: شخصيات النص السردي –البناء الثقافي-، سلسلة دراسات وأبحاث، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، د.ط، 1994.
-سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2003،
-الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 2000.
-فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام، المغرب، د.ط، 1990.
-محمد عابد الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط6، 1993.
-محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي –نظرية غريماس-، الدار العربية للكتاب، تونس، سلسلة مساءلات، د.ط، 1993.

(2): المجلات:

-فريدة بن عزوز: التحليل السيميائي للنصوص الأدبية، مجلة كلية الآداب، تطوان، المغرب، جامعة عبد الملك السعدي، مطبعة ألطوبريس، ع1، 2000.